

الفصل الثاني

التطور التاريخي للفلسفة الواقعية المعاصرة

الفصل الثانى

التطور التاريخى للفلسفة الواقعية

الفلسفة الواقعية هى إحدى الفلسفات التى سادت فى القرن العشرين ولكن ترجع جذورها التاريخية إلى عصر الفلسفة اليونانية القديمة فى عهد "أرسطو" وما قبل "أرسطو" أيضاً. وإذا كان القرن التاسع عشر قد غلب على طابعه الفلسفة المثالية، فإن القرن العشرين هو عصر الفلسفة الواقعية بل إن الفلسفة الواقعية كانت رد فعل للفلسفة المثالية عند "باركلى" و"هيجل" ولذلك كان معظم الفلاسفة الواقعيين مثاليين فى بداية حياتهم، ثم انقلبوا على الفلسفة المثالية وأصبحوا واقعيين. وأخذت الفلسفة الواقعية فى القرن العشرين تتشعب إلى عدة اتجاهات منها الواقعية الجديدة والواقعية النقدية وغير ذلك. ولذلك أخذت الواقعية المعاصرة معانى مختلفة باختلاف الفلاسفة، ورغم ذلك كانت لها أسس مشتركة لدى هؤلاء الفلاسفة الواقعيين منذ "أرسطو" حتى "راسل" و"وايتهد" و"بيري". ومن هنا تأتى أهمية هذا الفصل الذى هو عبارة عن تعريف الفلسفة الواقعية وتطورها التاريخى وأهم ملامحها ويستهدف هذا الفصل رصد هذه المعانى المختلفة للواقعية من خلال المحاور الآتية :-

أولاً :- تعريف الفلسفة الواقعية.

ثانياً :- التطور التاريخى للفلسفة الواقعية.

١- أرسطو .

٢- فرنسيس بيكون .

٣- توماس هوبز .

٤- جون لوك.

٥- جان جاك روسو.

٦- جون استيوارت ميل.

٧- الواقعية النقدية.

٨- الواقعية الجديدة.

٩- الواقعية فى انجلترا.

أولاً :- تعريف الفلسفة الواقعية:

الفلسفة الواقعية هى تلك الفلسفة التى تبدأ من الواقع وليس من الذات، أو هى بوجه عام: "نزعة تقدم الأعيان الخارجية على المدركات الذهنية" ولذلك فإن الفلسفة الواقعية لا تريد أن تضحى بوجود الطبيعة والأشياء فى سبيل الذات ، فهى تؤكد على "أن الوجود الحقيقى هو الوجود المادى وهى على العكس من الفلسفة المثالية التى تؤكد أن الفكر هو الوجود الحقيقى" ^(١). ولا يعنى ذلك أنها تفسر الكون بمبدأ واحد هو المادة لأن الواقعيين أكدوا على الكثرة فى الكون ، المهم أن الفلسفة الواقعية ترى أن نقطة البدء هى الواقع سواء كان هذا الواقع علمياً أو لغوياً أو مادياً أو قيمياً أو اجتماعياً على خلاف بين الفلاسفة. وإذا كانت المثالية تصر على قراءة الطبيعة من خلال الذات وتربط وجود الأشياء المحسوسة بالذات، فإن الواقعية على العكس تعترف بوجود مستقل للطبيعة وللأشياء، والعلاقة بين الأشياء والذات علاقة ديناميكية تؤثر الذات فى الأشياء وتتأثر بها وليست علاقة تسير فى اتجاه واحد من الذات إلى الأشياء، ومن الخطأ الشائع القول "بأن الواقعية جعلت الذات فى موقف سلبي محض تتقبل التأثيرات الحسية من الخارج كما تفعل آلة

(١) المعجم الفلسفى ، مجمع اللغة العربية ، القاهرة ، ١٩٨٣ ، ص ٢١٠.

(2) A.R. Lacey :Dictionary of philosophy" London third edition, P. 297

التصور بالنسبة إلى الصور الفوتوغرافية التي تلتقطها ، فهذا القول ليس إلا افتراء صارخاً على الواقعية الفلسفية. لأن الواقعية لم تلغ الذات لحساب الأشياء بل أرادت أن لا نكتفى بالاستماع إلى صوت الذات وفاعليتها في عملية الإدراك وأرادت أن نشرك معه فاعلية الأشياء أو فاعلية الطبيعة. إذ لعل الطبيعة قادرة على الوقوف على أرجلها وحدها ولعل لها فاعلية أو نشاطاً خاصاً لها ولعلها قادرة على إحداث تشكيلات وتجمعات بين الأشياء تجدها الذات في مواجهتها عند فعل الإدراك. والواقعيون يريدون أن لا يضحوا بكل هذه الفاعلية التي للطبيعة أو على الأقل يريدون أن يعترفوا بوجودها . بجانب اعترافهم بفاعلية الذات" (١) على ذلك فإن الفلاسفة الواقعية قد قامت على أساس أن نقطة البدء من الواقع وأن هذا الواقع مستقل عن الذات ويتصف بالصفات الآتية :-

أ- التغير : إن الواقع ليس ثابتاً كما يبدو لنا ولا جامداً صلباً بل هو دينامي متغير ، لا يعرف الثبات ولا الجمود ، فكل ما في الكون في تغير دائم وسيلان مستمر لا يعرف التوقف.

ب- الكثرة : الكون كثرة ، وتعدد لا يمكن حصره ، فالموجودات كثيرة في هذا الكون وهي كثرة حقيقية وليست زائفة.

ج- التطور : هذا الواقع يتطور وينمو نمواً لا حد له.

د - الاستقلال : فهو مستقل عن الذات سواء أدركته الذات أم لم تدركه .

هـ- الوجود الحقيقي : هذا الواقع له وجود حقيقي وليس وجوداً زائفاً على عكس الفيلسوف المثالي الذي كان يرى أن الوجود الحسى ليس هو الوجود الحقيقي ، كما يرى "أفلاطون" وغيره من المثاليين ولكن

(١) يحيى هويدى "دراسات فى الفلسفة الحديثة والمعاصرة". القاهرة، دار الثقافة ، ١٩٨١ ،

الفيلسوف الواقعي يرى أن الوجود الحسي المادي هو الوجود الحقيقي ، فهذه الأشجار والجبال والأنهار لها وجود حقيقي ، وليست ظلاً أو وهمًا أو مجرد أفكار في عالم ذهني ولكن الوجود الحقيقي هو الوجود المادي الحسي ويقسم "راسل" الوجود المادي إلى قسمين الأول : الفينومين Phenomen وهو مظهر الشيء. والثاني النومين Nominee وهو جوهر الشيء والإنسان لا يستطيع أن يعرف إلا الفينومين مظهر الشيء ، وسيوضح ذلك من خلال التطور التاريخي للفلسفة الواقعية في الصفحات الآتية:

ثانياً :- التطور التاريخي للفلسفة الواقعية :-

١- **أرسطو** : (٣٨٤ : ٣٢٢ ق.م) Aristotle أحد أشهر فلاسفة اليونان ، وأكثرهم تأثيراً على مر العصور ، ولد في "أسطا غيرا" ثم سافر إلى أثينا ليستكمل تعليمه فدخل الأكاديمية ، فسماه "أفلاطون" "العقل" لذكائه الخارق ، ولما توفي أفلاطون غادر "أرسطو" أثينا ثم كون لنفسه مذهباً فلسفياً وأنشأ مدرسة "اللوقيون" وكان "أرسطو" يلقي دروسه وهو يتمشى وتلاميذه يسرون من حوله، ولذلك لقب هو أتباعه بالمشائين، وكانت الدراسة في مدرسته على نوعين : صباحية مخصصة للتلاميذ وتدور الدراسة حول الفلسفة ، ومسائية عامة تدور حول الخطابة وقد كتب "أرسطو" مؤلفات عديدة، ففي شبابه كتب مؤلفات كثيرة ولكن ضاعت جميعاً ، أما مؤلفات الكهولة فقد بقي معظمها ، كما كتب "أرسطو" مذكرات خاصة ، كان يكتب فيها معلوماته الخاصة بأبحاثه ، أما المؤلفات التعليمية التي كان يدرسها لطلابه فهي الموجودة الآن بين أيدينا ، ولأرسطو كتب في المنطق والطبيعيات والميتافيزيقا والأخلاق والسياسة والفنون والتربية. إن "أرسطو" كان واقعياً في فلسفته الطبيعية ، وانعكس ذلك على التربية عنده سواء

كانت تربية عقلية، أو أخلاقية ، أو جسمية ، فقد أهتم "أرسطو" بتربية العقل باعتبار أن أهم ما يميز الإنسان عن الحيوان هو العقل ، وفي كتبه الأخلاقية ، يبدأ "أرسطو" بحثه في الأخلاق بالبحث عن الخير الأقصى والسعادة حيث يرى أنه ما من عمل أو علم إلا وكانت الغاية منه تحقيق خير ما ، والخير الأقصى كما يرى "أرسطو" هو السعادة ، وأن هدف الحياة ليس الخير في حد ذاته ، بل السعادة لأننا نختار السعادة لذاتها ، لا لشيء آخر ولذلك اعتبر "أرسطو" "السعادة هي الهدف من التعليم" ^(١) بينما كانت المعرفة هي الهدف من التعليم عند "أفلاطون" ، ويرى "أرسطو" أن الدولة هي المسؤولة عن تحقيق النظريات الخلقية ، لأن الناس يتجنبون الشر خوفاً من القصاص ، والأسباب التي تؤدي إلى تحقيق الفضيلة ثلاثة هي الطبيعة والعادة والتعليم ، و"أرسطو" يعنى أن الفضائل لا تنشأ فينا بالطبيعة أو الفطرة ولكن الطبيعة قد هيأتنا لتلقى الفضائل وقبولها والعادة هي التي تجعلنا كاملين ، والعادة عند "أرسطو" هي التربية الخلقية ، ومن الواضح أن الفضيلة ليست انفعالاً ولا قوة طبيعية وإنما الفضيلة هي عادة خلقية مكتسبة أو هي طريقة لسلوك الإنسان عند انفعالات معينة ، فالفضيلة ليست موجودة في الإنسان بالطبيعة ولكنها مكتسبة ووجودها يتطلب شرطين أساسيين: الإرادة القوية والتعود على ممارستها، ولذلك إذا تعود الإنسان منذ الصغر أن يفعل السلوك الفاضل فسيكون من السهل عليه دائماً أن يختاره بل سيشعر بلذة وسرور عند ممارسته، لذلك ينادى "أرسطو" بضرورة تدخل المربي في تكوين العادات الحسنة في الأطفال ، ويستخدم في سبيل ذلك العقاب والجزاء حتى تتمكن العادة من صاحبها، وتصبح له بمثابة طبيعة ثانية تساعد في المستقبل على اختيار الفعل الخير في

- Paul Monroe "History of Education" London, Macmilan, Co, P. 68

الحياة ، ويؤكد "أرسطو" أن الفضيلة لا توجد إلا عندما يكون العقل فى حالة جيدة ، عندئذ يستطيع العقل أن يأمر باتباع ما هو أحسن وأفضل ، والفضيلة الأخلاقية هى وسط بين طرفين كلاهما رذيلة ، فالشجاعة فضيلة وسط بين التهور والجبن ، والسخاء فضيلة وسط بين البخل والتبذير ، والوداعة فضيلة بين الحدة والخمود ومن هنا فإن الفضيلة هى الطريقة الوسط ، أو الوسط الذهبى حيث تنظم الأخلاق فى شكل ثلاثى يكون الطرفان الأول والأخير فيه تطرفاً ورذيلة والوسط وحده فضيلة وهكذا يكون بين التهور والجبن فضيلة الشجاعة ، وبين البخل والأسراف فضيلة الكرم" (١) وأن هذه الفضيلة يمكن أن تكتسب بالمران والعادة ، وأخيراً يؤكد "أرسطو" على أن وظيفة الدولة هى الوظيفة التربوية وهدفها أن تهئ لأفرادها الحياة السعيدة التى يتمتعون فيها بممارسة أفضل وظائف الإنسان وهما الحياة الفاضلة الخلقية والنظر العقلي ومن هنا كان اهتمام "أرسطو" بكل من التربية الخلقية والتربية العقلية اهتماماً كبيراً ، وقد سيطرت أفكار وأراء "أرسطو" طوال العصور الوسطى حتى جاء عصر النهضة واهتزت أراءه بظهور منهج التجريب والبحث العلمى على يد "فرنسيس بيكون".

٢- فرنسيس بيكون (١٥٦١ - ١٦٢٦) Francis Bacon فيلسوف انجليزى ،

ولد . فى لندن ، وظل يترقى حتى وصل إلى منصب قاضى القضاة عام ١٦١٨ ، ويدور فكره الفلسفى حول رفضه للمعرفة النظرية ، والاهتمام بالمنهج التجريبي ، من أهم مؤلفاته "الأرجانون الجديد" الذى قدم فيه نقداً "لأرسطو" ، وكذلك ينقد الأخطاء الشائعة فى العقل الإنسانى بصفة عامة التى وقفت عقبة فى سبيل التقدم العلمى ، ومن أهم العقبات والأوهام:

^١ - Will Durant "The story of philosophy" New York., Garden city, Co, P. 86

١ - أوهام القبيلة:

أخطاء شائعة مشتركة في العقل الإنساني بصفة عامة مشتركة بين جميع البشر فهي خاصة بالجنس الإنساني عامة ومتأصلة في تركيب العقل الإنساني الذي لا يقبل إلا ما يوافق غروره ، كما يفترض أن في الطبيعة نظاماً أكثر مما في الواقع. العقل يميل بطبيعته إلى التجريد والثبات والتسكين لكل ما هو متحرك والعقل لعبة في يد الأهواء والغرائز وهو يتعلق بالخرافات والسحر والتنجيم^(١).

٢ - أوهام الكهف:

كل إنسان سجين كهفه ولا يفكر إلا طبقاً لمزاجه الخاص ، وكل واحد يحكم على الأشياء طبقاً لطبيعته ومزاجه الخاص وتربيته وثقافته ومجتمعه وبيئته التي نشأ فيها وصدق "هرقليطس" : أننا نبحث عن المعارف في عوالمنا الخاصة لا في العالم الكلي المشترك بيننا جميعاً^(٢).

٣ - أوهام السوق:

الناس تتفاهم عن طريق اللغة ، وأكثر كلمات اللغة غير دقيقة والعبارات غير سليمة فتكون عقبة أمام العقل وهناك كلمات لا تدل على أشياء ، الغموض هنا يوقع العقل في الأخطاء.

٤ - أوهام المسرح:

أوهام خاصة بالعلماء والفلاسفة وكل فيلسوف يقدم لنا تصوراً شاملاً للكون والوجود الحقيقي، والناس تعتقد في صحة كل ما يقوله الفيلسوف وكأنها تمثيلية قام بإخراجها الفلاسفة أنفسهم.

^١ - W. Durant "The Story of Philosophy. P. 165.

^٢ Ibid. P. 166.

العقل الذى يخضع لكل هذه الأوهام هو عقل واهم مريض ويجب أن يستبدل به العقل السليم فما هو العقل السليم ؟ هو الذى يسير وفقاً لخطوات المنهج العلمى الذى يعتمد على الملاحظة والتجربة ، وبذلك يكون "بيكون" قد وضع الخطوات الأولى للتفكير العلمى فى العصر الحديث.

"ولبيكون" هدفان وراء كل دوافعه وإنتاجه الفكرى: الأول هو تحويل العلم إلى منفعة تفيد الإنسان ، والهدف الثانى هو تطوير طريقة الاستقراء فى البحث لتساعد الإنسان على إخضاع الطبيعة لإرادته والسيطرة عليها. وقد كان "بيكون" يرى ضرورة تغيير المناهج من: مناهج استنباطية إلى استقرائية، وقد حدثت تغييرات فى الاتجاهات والمناهج العلمية منذ عصر النهضة أدت إلى طريق التجريب ، وعبر "بيكون" عن ذلك فى نقده "لأرسطو" وللإغريق عامة فيقول "إنهم تكلموا كثيراً وعملوا قليلاً ، وكانت حكمتهم ثرثرة غير مجدية ولا منتجة (١)

ويرى "العقاد" أن "بيكون" لم يكن أول من علم الناس منفعة العلم فى خدمة الإنسان ولا أول من أقامه على أساس التجربة والاستقراء. ولا يقدح ذلك فى فضل رسالته لأن أصحاب الرسائل الفكرية جميعاً صدق عليهم ما يصدق عليه ، "ولكنه وحده قد اهتدى إلى الموضع من الحقائق الحرة بالتوكيد والتقرير ، وبشر بالفكرة التى يستدعيها الزمن الحاضر والزمن المستقبل من بعده. وكانت بحق طليعة الكشوف الموائية فى العلم الحديث". (٢)

لقد نادى "بيكون" بأن المنفعة غاية المعرفة الإنسانية ، وأن الأقيسة مضللة للعقل تقوم على الفرض والتخمين ، نادى بهذا فى زمن كان الناس فيه يحتقرون الانتفاع بالعلم لاعتقادهم أن الآخرة هى محور كل الحياة وأن الزهد فى الدنيا صفة العلماء.

(١) سعد مرسى أحمد "تطور الفكر التربوى" مرجع سابق ص ٤٠٢.

(٢) المرجع السابق ، ص ٤٠٣ .

ولم يرفض "بيكون" الأقيسة برمتها ، فقد اعتبر الأقيسة "توقعاً للعقل" وأنها تستخدم ولكن في حدود. أما طريقة الاستقراء فهي الموصلة إلى تقرير درجة التأكيد ، وهي تستخدم في الكشف عن العلم في ترجمة الطبيعة ، وبهذه الطريقة يسيطر الإنسان على الطبيعة. ويرى "بيكون" أن العلم والسعادة البشرية صنوان ، ولاحد من مثل هذا العلم وتلك السيطرة والإنسان إن هو إلا خادم ومترجم للطبيعة فكل ما يصدر عنه ، بل كل ما يعرفه ويتحصل عليه نتج عن ملاحظته نظام الطبيعة ، في الحقيقة أو في تفكيره ، وفيما عدا هذا فإنه لا يعلم شيئاً ولا يمكنه القيام بشيء لأن سادسة الأسباب لا يمكن لأي قوة فصم عراها ، ولا يمكن السيطرة على الطبيعة إلا بالخضوع لها. وعلى ذلك فإن موضوعي المعرفة البشرية يلتقيان في الواقع في نقطة واحدة ، والسبب في فشلنا في العمل هو جهلنا بالأسباب.

وفي رأى "بيكون" أنه لا بد للعقل البشرى من التخلص من عوائق البحث التي تقف عقبه أمامه ، وقد أطلق على هذه العوائق اسم Idols أى الأصنام أو الأوهام وسماها : البعض الأوثان ،. وهي هذه العقائد والموروثات التي تتحرف بالإنسان عن قصده وتميل به إلى السخف والضلال. وقد عبر عنها في كتابه Novum Organon (القسطاس الجديد أو القانون الجديد).

وقد كان "بيكون" يظلم بعلماء يجمعهم التعاون والاختلاط الدائم ، وفكر في إنشاء منظمة كبيرة توحد هدفهم وتكون هذه المنظمة دولة لا تحددها حدود الدول حيث تجعل من العالم وحدة ثقافية واحدة ، وقد لاحظ بيكون ضعف الشعور والرابطة بين الكيات والجامعات في جميع أنحاء أوربا وإنجلترا "ويدعو جميع هذه الجامعات إلى تحديد وتوزيع القضايا بينها والتعاون في البحث والنشر ، وبهذا التعاون والارتباط تصبح الجامعات جديرة بالمساعدات والتأييد الملكي الذي سيجعلها جامعات مثالية تعتمد على تعليم عادل يسود العالم. وقد كتب "بيكون" عن ضلالة المراتب المخصصة للمحاضرات العامة سواء في العلوم والفنون ودعا.

إلى أن تتولى الحكومات مهام التعليم^(١) وحلم "بيكون" غزو الطبيعة وتوسيع قوة الإنسان وسيطرته على الطبيعة.

"ومن آرائه فى التربية تراه يتهم على الكلاسيكيات فيقول أنه لا يشرفنا أن تقف الحدود العقلية عند اكتشافات العلماء ، ولذلك يجب أن تتجه الدراسة نحو الطبيعة كلها ، والمعرفة المشتقة من الطبيعة هى الصالحة للدراسة ، وهى تأتى بطريق الحواس ، وهى الحقيقة المثمرة ، وإذا كانت هذه هى مواد الدراسة فإننا نجده تناولها بطريقة جديدة هى الانتقال من دراسة الجزئيات إلى القواعد والمبادئ العامة^(٢) .

ويلخص موقف بيكون فى أنه رأى وجوب إعادة تربية الإنسان بطريقة علمية وسوف ينشأ نظام اجتماعى جديد مؤسس على البحث العلمى فى مظاهر الطبيعة باستخدام الاستدلال الاستقرائى. ويرى أن العلم كفيل أن يحسن ظروف الحياة المادية ويسعد الناس ويعمل على رفاهيتهم . . . وإذا استطاعت المدارس أن تنشر المعرفة فإن هذا سيؤدى إلى حل المشكلات التى حيرت البشرية. وفى خطته التربوية اعتقد أن المعرفة قوة ، وأنه إذا تحسنت معارف الناس تحسنت أحوالهم.

ولم يرفض الإلهام الإلهي ، ولكنه رفض أن يلعب أى دور فى التربية ، فكل ما يدور فى حلبة التربية يجب أن يؤسس على المعرفة العلمية.

٣- توماس هوبز (١٥٨٨ - ١٦٧٩) Thomas Hobbes

فيلسوف إنجليزى ، اهتم بوضع أصول جديدة للفلسفة السياسية ، فوضع نظرية فى الدولة تحقق للفرد حريته وللمجتمع الأمن والسلام ، ومن أشهر مؤلفاته كتاب "التنين" وكتاب "فى المدينة" وكتاب "الطبيعة الإنسانية" الذى يرى فيه الإنسان

^١ - W. Durant "The Story of Philosophy. P. 169.

^(٢) سعد مرسى أحمد ، تطور الفكر التربوى ، ص ١٠٥ .

يستطيع إدراك الأشياء بواسطة الانطباعات التي تحدث على أجسامنا ، وعندما نفكر نستخدم هذه الانطباعات المباشرة أو غير المباشرة بواسطة التذكر ، ويعتقد «هوبز» أننا ندرك فى الواقع ظواهر الأشياء أو مظاهرها عن طريق الحواس وما الإحساس إلا نتيجة رد فعل لتأثير الأشياء على الحواس ، وهو يعتبر الإحساس حركة داخل جسم الإنسان وهى استمرار للحركة الخارجية ، وعندما يضعف الانطباع الحسى الذى يأتينا عن طريق العين مثل الضوء والشكل واللون ، أو الأذن مثل الصوت ، أو الأنف مثل الرائحة ، فإنه يتحول إلى صور فى المخيلة ، وتخترن الذاكرة هذه الصور ، أما الذهن الإنسانى فوظيفته الإدراك والربط بين الإدراكات المختلفة والاستدلال العقلى. ومن الواضح أن نظرية المعرفة عند «هوبز» ترجع إلى الإحساس والانطباعات الحسية ، حيث يفسر جميع العمليات العقلية تفسيراً حسياً ، والمعلومات كلها مصدرها الحسى ولا يمكن أن يصل إليها الإنسان إلا عن طريق الحواس .

كيف تتم المعرفة عنده ؟

١- قراءة كتب القدماء.

٢- ملاحظة الناس والظواهر.

٣- دراسة الذات الإنسانية دراسة مباشرة.

إننا ندرك ظواهر الأشياء ومظاهرها عن طريق الحواس فنظرية المعرفة تستند إلى الإحساس وكل ما هو موجود فى النفس مصدره الإحساس. قديماً "أرسطو" كان يقول: أن الإنسان حيوان مدنى يعيش مع الآخرين، ولكن "توماس هوبز" عكس القضية فقال : إن الإنسان ليس مدنيا بل همجيا وشريرا ومتوحشا ينفر من القوانين والنظم يحاول أن يحقق مصلحته الخاصة ، لديه رغبة قوية فى الحياة

تجعله يعتدى على الآخرين ، فروح العداء كامنة فى كل نفس إنسانية. ويرى "هوبز" أن كل إنسان قادر على قتل الآخر، والإنسان حينما يخضع لأهوائه وإنفعالاته يصبح كالوحش الجاسر الذى لا يعرف الرحمة والتسامح. وطبيعة التربية كبح جماح الشر هذا الشر الكامن فى الإنسان. ويرى "هوبز" أن كل فرد فى المجتمع يحاول أن يحقق مصلحته الخاصة ، ومن هنا ينشأ الصراع فى المجتمع، وإذا انساق كل فرد لأهوائه ، لأصبح المجتمع فى حالة من الفوضى الدائمة، لأن الإنسان ليس إجتماعياً بطبيعته وروح العداء كامنة فى كل نفس إنسانية. ولذلك فهو يرى أن الناس فى الحالة الطبيعية يخضعون لحالة من الخوف العام، فكل فرد يخشى الآخر ويحذر منه ويتجنبه ، والناس فى المرحلة الطبيعية فى حالة حرب وفى هذه الحالة لا توجد أية مظاهر للحضارة الإنسانية من زراعة أو صناعة أو علوم أو فنون، ولكن نشأ العقد الاجتماعى الذى يتأسس عليه المجتمع بإرادة الأفراد حيث يتنازل كل فرد فى المجتمع عن حقه الطبيعى، وأن يعطى لنفسه نفس القدر من الحرية الذى يعطيه للآخرين، وذلك من أجل تحقيق السعادة للمجتمع، ولا تتحقق السعادة إلا إذا تنازل كل فرد من الشعب عن بعض حقوقه للحاكم الذى يمثل إرادة الشعب. و"هوبز" يفرض على الحاكم أن يحقق للشعب الخير والأمن والسلام ، وأخيراً فإن فلسفة "هوبز" السياسية أثرت فى إنجلترا وألمانيا وغيرها من الدول.

٤- جون لوك John Locke (١٦٣٢ - ١٧٠٤)

فيلسوف إنجليزى تجريبى واقعى ، ولد فى "رينجتون بإنجلترا" فى ٢٩ أغسطس سنة ١٦٣٢ أثناء حكم الملك "شارل الأول"، وكان أبوه محامياً ، شارك فى صفوف البرلمان حين اندلعت الحرب الأهلية (١) ، عاش "جون لوك" فى فترة اضطرابات سياسية ، فكانت هذه البيئة السياسية التى نشأ فيها من أكبر العوامل

(١) قامت الحرب الأهلية فى إنجلترا بين أتباع الملك شارل الأول وأتباع البرلمان وانتهت بإعدام الملك وقيام الجمهورية عام ١٦٥٣.

التي أدت إلى تفتح ذهن "لوك" على بعض الأفكار السياسية وتوجيه نظره إلى الاشتغال بالسياسية فيما بعد بحيث جعلت منه بعد ذلك فيلسوف الحرية لافى إنجلترا وحدها بل فى أوربا كذلك (١) .

ومما هو جدير بالذكر أن "لوك" لم يتأثر كثيراً بالمناهج التي كان يدرسها ، والتي تتلخص فى دراسة القواعد والترجمة المتعلقة باللغتين اليونانية واللاتينية ، كما أنه لم يحب النظام القاسى الذى كان يسود المدارس الإنجليزية فى ذلك الوقت وراح ينفقه ، وحاول أن يضع أسساً جديدة لتربية تقوم على شىء من الحرية والسهولة وقد وصف "لوك" تلك الطريقة القديمة ومقترحاته لتربية جديدة فى كتابه "أفكار عن التربية" عام ١٦٩٣ " Some Thoughts Concerning Education " ومن الناحية الفلسفية التحق بجامعة "أكسفورد" لدراسة الفلسفة التي وجدها خليطاً من فلسفة العصور الوسطى والفلسفة الأرسطية ممزجة ببعض العبارات الغامضة والمشكلات المبهمة، ولكنه اهتم بدراسة الفيلسوف الفرنسى "ديكارت" فوجد فى كتاباته الوضوح والسهولة والدقة والثورة على الفلسفة المدرسية القديمة، واستمر "لوك" فى دراسته الفلسفية فى أكسفورد مدة أربع سنوات حصل بعدها على درجة البكالوريوس ثم الماجستير ثم عين عام ١٦٦٠ محاضراً فى الفلسفة اليونانية وفلسفة الأخلاق فى مدرسة الكنيسة بأكسفورد مع استمراره فى متابعة دراسته للمنطق والميتافيزيقا والتاريخ والفلك والطبيعة والطب وبعض اللغات. ولذلك لم تكن أهمية "جون لوك" مقصورة على ميدان الفلسفة بل تعدته وانتقلت بطريقة طبيعية تطبيقية إلى ميدان السياسة والتربية ، والطب وغير ذلك، وترجع أهمية "لوك" فى تاريخ الفلسفة إلى أنه يعتبر أول من ناقش مشكلة المعرفة بمعناها المعروف ، حيث اهتم بمشكلة المعرفة من حيث أصلها ومداها ومصادرها وطبيعتها وخاصة التفرقة بين الصفات الأولية والصفات الثانوية، وتحليل فكرة الجوهر واللغة ومعانى

(١) عزمى إسلام "جون لوك"، القاهرة ، دار الثقافة ، ١٩٧٦ ، ص ٧.

الكلمات والمعرفة الفطرية وبإختصار طبق "لوك" الاتجاه التجريبي فى الفلسفة على نظرية المعرفة. ويمكن تلخيص أهم العوامل التى تقوم عليها فلسفة "لوك".

١- اتجاه تجريبى علمى مصبوغ بالصبغة الحسية.

٢- اتجاه عقلى مصبوغ بالصبغة الميتافيزيقية فقد استطاع "لوك" أن يبلور العناصر التجريبية والاتجاهات العلمية بالمنهج العقلى عند "ديكارت" وقدمها فى شكل فلسفة تجريبية نقدية جديدة. وكان أول ما ذهب إليه "لوك" هو رفضه القول بالمعرفة الفطرية الأولية فى العقل والتى أبدعها "أفلاطون" و"ديكارت" و"أفلاطونيو كمبردج"، وقد بدأ "لوك" فى كتابة "مقالة فى العقل البشرى" "An Essay Concerning Human understanding" بمناقشة نظرية المعرفة الفطرية ، فاستعرض الآراء القديمة والحجج التى أُستُخدمت لتدعيم هذه النظرية مفنداً إياها واحدة بعد الأخرى قائلاً "إن هناك اعتقاداً قوياً ثابتاً عند بعض الناس بوجود المبادئ الفطرية أو الأفكار الأولية كما لو كانت محفورة فى العقل أو مطبوعة عليه ، تلقتها الروح منذ وجودها القديم وجاءت بها إلى هذا العالم ^(١) وفى هذا النص يشير إلى "أفلاطون" الذى ذهب فى محاوره "فيدون" إلى أن النفس أزلية أبدية - بمعنى أنها كانت قبل أن تهبط إلى هذا العالم وترتبط بالجسد كانت موجودة فى عالم آخر ، أسمى من عالم المجسوسات هو عالم المثل والخير والجمال والحق، وفى عالم المثل الذى عرفت فيه جميع أنواع المعرفة ، ثم أرتبطت بالجسد وأصبحت المعرفة تذكر لما كانت تعرفه من قبل.

ويرى "لوك" أن الأفكار ليست مطبوعة على العقل لأنها ليست معروفة بالنسبة للأطفال والبلهاء وغيرهم.

John Locke " An Essay Concerning Human understanding
London, word, Lock Co. 1920. P. 12.

الألنه من الواضح أن جميع الأطفال والبلهاء ليس لديهم أدنى فهم أو فكر عنها ، "فإذا كان للأطفال والبلهاء أرواح وعقول طبعت عليها هذه الانطباعات فإنهم لا محالة مدركون إياها ، وبالتالي يعرفون هذه الحقائق ويوافقون عليها ، وطالما أنهم لا يفعلون ذلك فمن الواضح أنه لا وجود لمثل هذه الانطباعات لأنها إذا لم تكن أفكاراً مطبوعة بطبيعتها ، فكيف تكون مفطورة ؟ وإذا كانت أفكاراً مطبوعة ، كيف تكون غير معروفة ؟ أن القول بأن هناك فكرة مطبوعة في العف ، ثم تقول في نفس الوقت إن العقل جاهل بها ولم يلحظ وجودها عن الإطلاق ، معناه أن هذا الإنطباع ليس شيئاً بالمرّة" ^(١). فإذا كان للأطفال والمجانين عقول طبعت عليها هذه الانطباعات فهم لا بد أن يدركوها ويوافقوا على صحتها بالضرورة بينما الواقع على خلاف ذلك ، وبالتالي ليس هناك أفكار مطبوعة أو فطرية يولد الإنسان مزوداً بها وإلا كيف تكون فطرية وغير معروفة !!!

وإذا كان العقل لا يحوى أفكاراً فطرية فإنه صفحة بيضاء ، وأن المعرفة ترتد إلى مصدر واحد فقط هو التجربة أو الخبرة Experience ، فالعقل يستمد كل خبراته ومعلوماته من التجربة ، وعلى ذلك فالإحساس سابق على التفكير ، وليس هناك شيء في العقل ما لم يكن من قبل في الحس ، والتجربة عند "لوك" تعتمد على الملاحظة التي تنقسم قسمين ملاحظة خارجية موضوعية وملاحظة داخلية ذاتية الأولى تعتمد على إدراك الإنسان للمدركات الحسية الخارجية الموضوعية بينما الثانية تقوم على ملاحظة الإنسان لعملياته العقلية الداخلية ، وأهم أفكار "لوك" التربوية :-

^١ - Ibid.P. 13.

- (١) يؤمن بأن الخبرة أساس كل المعرفة ، فالطفل يولد وعقله صفحة بيضاء. إن مصدر كل أفكارنا خبراتنا الحسية ، وإدراك الظواهر الداخلية أى نشاط الفهم.
- (٢) يؤمن "لوك" بالإلهام الإلهي ، ولكنه ترك هذا الموضوع ليكون تحت بحث العقل البشرى.
- (٣) يؤمن بضرورة التربية الجسمية والخلقية ، وأن يبدأ الطفل تعلمه بالمحسوسات. ولهذا - ففى رأى البعض - يصنف "لوك" بين جماعة الواقعيين الحسيين.
- (٤) تهدف التربية إلى : قوة الجسم ، واكتساب المعرفة و صلاح النشأة وتهذيب السلوك وترتبط هذه الأهداف ببعضها فالمعرفة ترتبط بصحة الجسم وحسن الخلق والنشأة الطيبة. ويظهر اهتمامه بتربية الجسم فيقول: إن العقل السليم فى الجسم السليم^(١).
- (٥) ينبغى لى ينمو الأطفال نمواً جسمى صحيحاً ، ألا يلبسوا ملابس ثقيلة تدفئهم شتاء ، وأن يسيروا ورءوسهم عارية. وأن يناموا مبكراً ويتيقظوا فى وقت مبكر. والنوم ثمانى ساعات. والنقشف مستحب.
- (٦) يرى أهمية التربية الخلقية ، فيكون الجسم قوياً ليكون قادراً على تنفيذ أوامر العقل ، فالجسم القوى قادر على تحمل مختلف الصعاب ، حتى رغباته.
- (٧) يجب أن يتعلم الطفل إنكار الذات والسيطرة الذاتية ، ويجب أن يخضع الأطفال رغباتهم ومطالبهم فلا يندفعون وراءها. فلا يحصلون على شىء لأنه يرضيهم ، ولكن لأنه يصلح لهم.

(١) سعد مرسى أحمد، "تطور الفكر التروى"، ص ٤١٣.

(٨) تهدف التربية الأولى إلى تكوين العادات الصالحة ، ويتدرب الأطفال على تقبل أوامر الأب والمعلم ، عن أن يتحكم الخوف في تحديد سلوكهم في طفولتهم ، ويتحول محور السلوك إلى الحب والصدقة عندما يكبر الطفل ، ومع ذلك فيرى "لوك" أن العقوبة الشديدة غير مجدية ، وينصح باستخدام المدح.

(٩) يهتم ببث الفضائل منذ بواكير الطفولة ، فبالفضائل يتمتع الطفل بحب واحترام الآخرين كما يتعود التسامح مع نفسه. والسبيل إلى الفضائل هو التعليم الدينى صباحاً ومساءً حتى يتعود الإخلاص لله الخالق الوهاب الحافظ.

(١٠) تأتي التربية العقلية فى مرحلة تالية للخلفية ، ولا يرمى من التربية العقلية أن يحقق المتعلم كمالاً فى علم من العلوم ، ولكن ليتفتح عقله لشتى العلوم.

(٥) جان جاك روسو (١٧١٢ – ١٧٧٨).

فيلسوف فرنسى ، ولد فى مدينة جنيف ، ونشأ بها ، توفيت أمه عقب ولادته ، وأهمل أبوه وأهله أمر العناية به ، فلم يذهب إلى مدرسة قط بل علمه الدهر وحنكته التجارب فهجر بلده جنيف ، وهو فى السادسة عشرة من عمره وسافر إلى بلاد شتى ، ثم اتجه إلى فرنسا واستقر فيها وكان على علاقة بفلاسفتها وأدبائها وكانت أكثر مؤلفاته تعمل على تغيير نظام الأسرة ونظام الحكم ، ونظام التربية والتعليم ، وفى كتابه العقد الاجتماعى أشاد بالديمقراطية وسيادة الشعب وفى كتاب "إميل" قدم نظام تربوى جديد "حتى أن تاريخ التربية لا يعدو أن يكون

منذ ظهور "روسو" إلا تعديلاً أو نقداً أو إقراراً لما جاء به كتاب "إميل" من آراء^(١) فقد وضع فى كتاب "إميل" خلاصة فكره التربوى حيث وضع كيف يربى تربية سليمة وكيف يربى الطفل منذ ولادته حتى يبلغ العشرين من عمره ، الأجزاء الأربعة الأولى من إميل لتربيته ، أما الجزء الخامس فشرح فيه تربية البنات لتكون امرأة تربى أبناءها وتسعد زوجها.

وكانت سنوات "روسو" الأخيرة متسمة بالمتاعب فبعد أن ألف "إميل" خاف الاعتقال فهرب إلى إنجلترا. وظل يتنقل هو و"تيريز" من مكان إلى آخر حتى عادا متنكرين إلى "باريس" سنة ١٧٧٠ ، وضاعت زوجته به وأهملته. وعاش بائساً يكسب قوته بنسخ الموسيقى حتى ضعفت أعصابه وعجز عن الكتابة أو كاد. وجالت برأسه هواجس وخواطر غريبة ففقد الثقة فى كل الناس ، ثم انسحب إلى الغابات حيث قدم له صديق كوخاً فى غابة يسكنه. وعادت إليه الخواطر السوداء فظن أن أعداءه يحيطون به. ويقال أنه انتحر ، وقيل إن سكتة قلبية دهمته فمات ودفن فى ليلة صيف هادئة بين أحضان الطبيعة وسط أشجار جميلة. وبعد أن نجحت الثورة الفرنسية (١٧٨٩) حمل الثائرون جثته حيث دفن مع العظماء فى البانثيون.

أما عن آرائه التربوية التى تردد صداها يمكن تلخيصها:

- (١) يرى أن هدف التربية هو تكوين إنسان كامل ، وأن على التربية أن تزيل كل شئ لتنمو الطبيعة الإنسانية وترقى ، فالتربية بهذا المعنى وسيلة يزول بمقتضاها ما يعوق نمو الطفل وما يؤثر فيه تأثيراً سيئاً.

(١) ماك كالستر "نشأة الحرية فى التربية" ترجمة أمين مرسى ، القاهرة ، مكتبة النهضة المصرية ، ص ٣٥٦.

(٢) ثار "روسو" ضد النظم القائمة وخاطب الناس قائلاً: "سيروا ضد ما أنتم عليه تصلوا إلى النجاح"، وقد هزأ بالتعليم المدرسى العادى ، ونصح المربين بأن يرجعوا مع الأطفال إلى الحالة الطبيعية.

(٣) يرى "روسو" أن التربية الأولى من الميلاد إلى سن الثانية عشرة يجب أن تكون سلبية محضة ، إذ أنها لا تدعو إلى بث الفضائل بل عليها أن تبعد كل ما يكون الرذائل عند الطفل ، وحتى تحفظ عقل الطفل من الخطأ. والخير فى أن تترك الطفل دون أن تفعل شيئاً له. وفى رأيه ألا يعلم الطفل شيئاً حتى الثانية عشرة.

(٤) ويرى "روسو" على المربين دراسة الأطفال وأن يدرسوا العالم فى نظر الطفل وعقليته وغرائزه وميوله وتفكيره . . . الخ ، ويقول "ادرسوا أطفالكم إننا لا نفهم معنى الطفولة". وكان يرى أن جهل المربين بالأطفال والطفولة أدى إلى تربيتهم تربية خاطئة - ورأى . . . "إن الطبيعة تتطلب أن يكون الأطفال أطفالاً قبل أن يكونوا رجلاً" والطفل فى نظره ليس رجل صغير ولكنه كائن فى طريق النمو. ويتكلم "روسو" عن بعض صفات الأطفال فيقول "عن الأطفال لا يفكرون إلا فى الحاضر دائماً ، إن فى استطاعتك أن توحى إليهم بذوق أو عاطفة ، إنهم معجبون بأنفسهم يتمنون أن يكون لديهم ما لدى غيرهم ، إنهم مرحون محبوبون للمحاكاة ، إن الطفل يتمنى أن يكون أشياء ، وأن يقلد وأن ينتج ، وأن يظهر قوة ونشاطاً (١)

(١) سعد مرسى أحمد "تطور الفكر التربوى". مرجع سابق، ص ٤١٩.

وكان يرى أن وظيفة المربين إعداد الطفل للحياة المقبلة وأن يدركوا العالم في نظره ، وكيف يراه ويتخيله ، وأن يفكروا في عالم الطفولة الذى يعيش فيه حتى يأخذ من المواد ما يلائم ذلك العالم.

٥- اهتم "روسو" بنشاط الطفل ونصح بمده بالسوائل التى يظهر فيها هذا النشاط ، كما نادى باستغلال حواس الطفل وتربيتها منذ الطفولة. بل إنه نادى بعدم تعليم الأطفال القراءة فى الصغر معتقداً أن حركة الطفل ولعبه أكثر فائدة له فى الناحيتين الجسمية والعقلية.

٦- يرى "روسو" أن يقلل بقدر المستطاع من الأوامر والنواهي التى يصدرها الكبار للأطفال ، كثرتها تميت شعور الطفل ، ولا تدفعه على التفكير لأنه يصبح آلة فى يد غيره. ولذلك فهو يرى أن يتعود الطفل السلوك دون سلطة خارجية تصده عن الخطأ . إذ أن معنى هذه السلطة أنه يعمل خوفاً من عقاب ولا يفكر فى إرضاء ضميره أمام الله والإنسانية. وإنما سلك ما يسلك لارضاء غيره.

٧- يؤمن "روسو" بتشجيع الدراسة العملية والطبيعية والرياضة ، ويندد بتعليم الآداب واللغات. كما يرى ألا يعتمد الطفل على الكتب وحدها فى التعليم.

٨- وفى رأى "روسو" أن يترك الطفل للطبيعة يتعلم ما فيها من أسرار ، ويدرس ما فيها من نبات وحيوان وجماد حتى يقدر قدرة الخالق. والطبيعة فى نظره خيرة وإن الشر يأتى إلى الإنسان من احتكاكه بالناس.

وقد عبر "روسو" عن آرائه التربوية فى كتاباته، وخاصة فى "إميل". "وإميل" شخصية رباها "روسو" فى كتابه ، ولم يقترح نظاماً للتعليم ، ولكنه ترك الطبيعة تأخذ مجراها ، والكثير من الآراء التى أوردها لا يمكن تطبيقها

اليوم، ولكن "روسو" يقترح عديداً من الوسائل لدراسة طبيعة الطفل. والكتاب في خمسة أجزاء (١):

١- **الجزء الأول:** من الميلاد إلى الخامسة ، وينصح "روسو" بأن ينقل الطفل إلى الريف ليعيش وسط الطبيعة. ولا يتدخل أحد في تربيته ، بل يترك لتقوم الطبيعة بتهيئة الظروف للنمو الداخلي لمواهب الطفل وأعضائه. وينصح بالآلاف الطفل بعد ولادته بالأربطة واللفافات ، فهذا معوق لنموه الطبيعي ، وألا نغالي في العناية به حتى ينمو مستعداً لمقاومة صعوبات الحياة ، فنجيب طلباته الضرورية دون إسراف ويوجه الطفل في هذه المرحلة : الأم مصدر حبه ، والأب وهو المربي الأول للطفل ، ثم المعلم الذي يعلم الطفل واجبات الرجال.

٢- **الجزء الثاني:** من الخامسة إلى الثانية عشرة ، ويظل الطفل في الريف والتربية في هذه المرحلة جسمية ، وينصح بأن يعود الطفل خشونة وتتميز هذه المرحلة بأن التربية فيها سلبية. تهتم بتعويد الطفل العادات الخلقية السليمة ، ولا يتعلم القراءة والكتابة ، بل لا يحمل الطفل على تعلم أشياء لا يقدر على فهمها ، وأن يقتصر الإعداد التربوي للطفل على مجرد تدريب الحواس.

٣- **الجزء الثالث:** من الثانية عشرة إلى الخامسة عشرة ، وهذه مرحلة البلوغ ويراها "روسو" مرحلة التفكير والدراسة ، ومرحلة العمل والتعليم. وينصح بأن نعتمد على الظمأ الطبيعي للطفل نحو المعرفة ، وأن نعتمد على الطبيعة وألا نلجأ إلى الكتب ، فبالعالم المحيط بالطفل هو كتابه

(١) المرجع السابق ص ٤٢٠.

وحقائق هذا العالم هي موضوعات التعليم. وينصح "روسو" بتعليم "إميل"

الجغرافية والفلك والجبر والطبيعة ، ويكون تعلمها بطريقة عملية.

ويرى أن يكون كتاب "روبنسن كروزو" أول كتاب يقرأه "إميل" ، سيتقمص شخصية "روبنسن" ويتعلم بعض الصناعات التي كان يقوم بها بطله ، وأن هذا سيحرك فيه دافع البحث عن فنون أخرى. ومرة أخرى ينصح "روسو" بأن يتعود "إميل" التنكشف فيفتersh الأرض ويلتحف السماء مثلاً.

٤- **الجزء الرابع** : من الخامسة عشرة إلى العشرين ، فبعد أن أخذ "إميل" قسطاً كافياً من التربية الجسمية والعقلية أصبح لازماً أن يربى دينياً وأخلاقياً حتى يدرك صلته بالناس وعلاقته بالله. ويرى الإقلال من النصائح والإرشاد وزيادة اتباع الطرق العملية واحتذائه المثل الصالحة التي يلمسها في سير أبطال التاريخ. ومن رأى "روسو" أن تعليم الدين يبدأ في سن الخامسة عشرة. ويفيد "إميل" من احتكاكه بذوى الخلق السيء وزيارته للملاجئ والسجون حتى يشاهد أمثلة محسوسة للبؤس ويتعرف على نتائج السلوك الخاطئ. وفي هذه المرحلة يبدأ "إميل" يتذوق القراءة والفن. (١)

٥- **الجزء الخامس** : تربية المرأة ، فقد كبر "إميل" وبدأ يبحث عن زوجة ، فوجد صوفى. وفي هذا الجزء يعطينا "روسو" آراءه عن تربية البنت التي ستصبح امرأة مهمتها إرضاء الرجل. ولهذا فيجب أن تربي لتحقيق هذا الهدف ، وحيث أنها تسعى إلى إرضاء رجلها فيجب أن تمرن جسمياً لتكون رشيقة سليمة البنية قوية ، وتتعلم الطهى والتطريز والعناية بالأطفال، وتتعلم كيف تكون فائته جذابة ، وكل ما تتعلمه يدور حول إسعاد وخدمة الرجل. ومما لا شك فيه أن المربين لا يختلفون في أن "روسو"

(١) المرجع السابق، ص ٤٢١.

واضع أصول المذهب الطبيعي فى التربية فقد ألح بوجود اتباع الطبيعة فيقول "إن كل شىء حسن طالما هو فى يد الطبيعة ، ولكن كل شىء يلحقه الفساد إذا مسته يد الإنسان" ^(١) ومن صيحة "روسو" يبدأ عصر جديد للتربية يستخدم أسسه من دراسة الطفل والطبيعة على السواء.

٦- جون استيوارت ميل (١٨٠٦ - ١٨٧٣) Stuart Mill.

فيلسوف إنجليزى من أهم فلاسفة القرن التاسع عشر ، وابن "جيمس ميل" الفيلسوف المؤرخ صديق "بنجامين" صاحب مذهب المنفعة فى الفلسفة ، رياه والده تربية جيدة منذ الثالثة من عمره كى يكون خليفته فى نشر هذا المذهب. وكان "استيوارت ميل" شديد الذكاء ، حتى أنه "تعلم اللغة اليونانية وهو ابن ثلاث سنين ، وقرأ الكتب بها قبل أن يبلغ الثامنة ، كما أحسن مطالعة الكتب اللاتينية قبل الثانية عشرة" ^(٢) ومن أهم مؤلفاته "فى الحرية" حيث يرى أن الحرية لا تطبق إلا على من نضجت ملكاتهم العقلية، وأن هذا الشخص الناضج يتميز بأن له الحرية فى أن يقرر وجوده وحياته بطريقته التى يراها وبأسلوبه الخاص ، وليس ثمة سبب ما يبرر التدخل فى شئون حريته سوى حماية الآخرين من الأذى ، وأما السبب الوحيد للضغط عليه فى أفعاله فهو درء أى ضرر محتمل وقوعه على الآخرين وبذلك يرى "ستوارت ميل" أن الحرية حق طبيعى لكل إنسان ، ويملكها الإنسان بحكم الطبيعة" ^(٣) ولكن متى بلغت الأمة رشدها وجميع الشعوب قد بلغت هذه الدرجة - فالأكراه غير جائز لإصلاح شؤون الأفراد وقد أدرك "ستوارت ميل" ضرورة استبعاد الحرية من دائرة التربية ، فاستبعاده للحرية يرجع إلى صعوبة

(١) جان جاك روسو "إميل أو التربية" ترجمة عادل زعيترة، القاهرة ، دار المعارف ، ١٩٥٦ ، ص ٢٧.

(٢) ماك كالستر "نشأة الحرية فى التربية" مرجع سابق ، ص ٣٧١.

Stuart Mill "on Liberty" London, penguin, Book ltd, p. 70.

تطبيق رأيه على الشباب ، فقد كان يرى أن "التربية هي أن يقوم أولو الأمر باجبار التلميذ وإكراهه على أن يتلقى كل ما يراه معلمه حقاً وصواباً" (١).

وفى مجال الأخلاق كان «ستيوارت» يأخذ بمذهب المنفعة العامة حيث يرى أن الأفعال الخيرة هي التي تحقق أكبر منفعة لأكثر عدد من الناس وفى ذلك يرى "ستيوارت" "أن المنفعة تعتبر المرجع الحقيقى فى جميع المسائل الأدبية والمباحث الخلقية ولكن على شرط أن يفهم منها المنفعة بأوسع معانيها ، المنفعة القائمة على ما للإنسان من المصالح الخالدة باعتباره كائناً متطوراً" (٢) . وفى مجال مناهج البحث العلمى كان «ستيوارت» يدافع عن المنهج الاستقرائى التجريبي القائم على الملاحظة ووضع الفروض والتثبت من صحة الفروض وقدم «ستيوارت» طرقاً للاستقراء منها طريقة الاتفاق أو التلازم فى الوقوع Method of agreement .

وهى تعنى وجود العلة يستلزم وجود معلولها ، وقد عرض "فرنسيس بيكون" لهذه الطريقة وسماها قائمة الحضور فى منهجه، والطريقة الثانية طريقة الاختلاف أو التلازم فى التخلف Method of Difference وهى تعنى أن غياب العلة يستتبع غياب معلولها وتقوم هذه القاعدة على تجربة نمنع بها وجود العلة لنرى إذا كان المعلوم يمتنع - مع وجود الظروف السالفة - أو يظل قائماً وقد نضيف العلة إلى ظروف أخرى لنرى هل يقع المعلوم أو لا يقع ، وبهذا نتبين وجود علاقة عليّة بين ظاهرتين استناداً إلى أن غياب أحدهما يستلزم غياب الأخرى. وقد أشار «ستيوارت» إلى طريقة أخرى وهى طريقة الجمع بين الاتفاق والاختلاف وهى تجمع بين الطريقتين السالفتين بمعنى أن وجود العلة يستتبع وجود معلولها وغيابها يستلزم اختفاء معلولها وهناك طريقة أخرى هى طريقة التغير أو التلازم فى التغير وهى تشير إلى تحديد العلاقة العلية تحديداً كمياً وعددياً ، مستنداً إلى أن كل تغيير

(١) ماك كالمستر "نشأة الحرية فى التربية" مرجع سابق ، ص ٦٦ .

2 - John Stuart "on Liberty". P. 68.

يطرأ على العلة يقتزن لا محالة بتغيير مشابه له يلحق بمعلولها وأشار "سيتوارت" إلى طريقة البواقي Method of Residues ويراد بها الطريقة التي بها نعرف علة شيء ما في حادثة تعددت فيها العلل ، فإذا نشأ معلولان عن علتين وعرفنا أن إحدى علتين علة لأحد المعلولين قلنا أن المرجح أن تكون للعلة الثانية سبباً للمعلول الثاني وقد لخص "سيتوارت" هذه الطريقة في القانون التالي "إذا استبعدت من ظاهرة جزءاً عرفت باستقراء سابق أنه نتيجة أحداث سابقة فإن الظاهرة يكون نتيجة لباقي هذه الأحداث" ^(١) ومعنى هذا أن علة شيء ما ، لا تكون علة شيء آخر يخالفه. وخلاصة القول أن "سيتوارت" ميل قد اهتم بالمنهج العلمي من ملاحظة وأجراء التجارب وفرض الفروض والتثبت من صواب هذه الفروض أو خطئها وبهذا يتوصل العالم إلى وضع القوانين التي تفسر الوقائع.

(٧) الواقعية النقدية Critical Realism:

أنشأ هذا الإتجاه الجديد سبعة من الفلاسفة الأمريكيين منذ عام ١٩١٦ ، وكانت نظرية المعرفة مدار بحثهم غير أنهم رفضوا موقف الواقعية الجديدة في ضم الغارف والمعروف في نمط واحد ، وعادوا إلى الثنائية التي يتميز فيها الشخص العارف من الشيء المعروف ، وأن الشيء المعروف له وجود مستقل عن هذه المعرفة كل الاستقلال ، كما رفضوا القول بوجود فارق بين ظاهر الشيء وحقيقته ، أو ما يبدو من الشيء والشيء في ذاته ، وقد اشترك هؤلاء الفلاسفة السبعة في وضع كتاب "مقالات الواقعية النقدية - دراسة تعاونية لمشكلة المعرفة". والفكرة الرئيسية التي اتفق عليها فلاسفة الواقعية النقدية هي أنه في بعض حالات المعرفة يمكن التمييز بين طرفين: طرف منهما هو الشيء الذي نعرفه ، والثاني هو الوعي الذي نعرف عن طريقة الأشياء فقد صرحت الواقعية النقدية أنها لن تخطئ خطأ المثالية حيث حصرت الذات الإنسانية في مجرى وعيها ولكن الواقعية النقدية

(١) توفيق الطويل "أسس الفلسفة" مرجع سابق ، ص ١٧٤.

جعلت وعى الإنسان حلقة وسطى بين الشيء المعروف والعقل العارف سواء كانت هذه الحلقة الوسطى إدراكاً حسيّاً أو إدراكاً عقليّاً أو تذكراً لإدراك ماضى دون أن تقف هذه الحلقة الوسطى حاجباً يحجب العقل وراء ستاره فلا يتصل بالعالم الخارجى كما يقع، ومعنى ذلك أن الأشياء التى نعرفها موجودة وجوداً حقيقياً فى الخارج كما سيتضح عند الحديث عن نظرية المعرفة فى الفلسفة الواقعية المعاصرة.

(٨) الواقعية الجديدة New Realism

الواقعية الجديدة المعاصرة تتألف من ستة من الفلاسفة الأمريكان، وتدور فلسفتهم حول نظرية المعرفة، وفهم العلاقة بين الذات العارفة وموضوع معرفتها. وفلاسفة الواقعية الجديدة يروا أن المعرفة تقع مباشرة وبغير وسيط ، مما يجعل معرفتنا للشيء الخارجى صورة مطابقة لحقيقته فى الخارج.

وأشهر فلاسفة الواقعية الجديدة "بيرى" perry و"منتاجيو" Montague و"هولبت" Holt و"فيتكن" Fitkin و"سبولدنغ" Spaulding و"مارفين" Marvin واشتركوا جميعاً فى وضع كتاب "دراسات تعاونية فى الفلسفة" فى عام ١٩١٠ شرحوا فيه مذهبهم الفلسفى الذى ركز على نظرية المعرفة، وخاصة تحليل العلاقة بين الشخص العارف والشيء المعروف، وفى تحليلهم لتلك العلاقة قد دمجوا ثلاثة مذاهب فلسفية فى مذهب واحد ، أولها مذهب فلسفة الحس المشترك الذى شاع فى "إنجلترا" على يد "جورج مور" ، ويرى "مور" أن خبرة الإنسان المباشرة فى حياته اليومية هى المعتمدة فى معرفتنا بالأشياء التى تقع له فى تلك الخبرة المباشرة. وأما المذهب الثانى من المذاهب التى أدمجها الواقعيون الجدد فى فلسفتهم فهو الإعتراف بالوجود الضمنى للمعانى الكلية جرياً على المبدأ الذى أخذ به "أفلاطون" فى نظرية المثل حينما أطلق "أفلاطون" على الاسم الكلى مثل شجرة وبحر وجبل على مفردات كثيرة مما يدرج تحت نوع واحد حيث تكون المفردات كثيرة، وكلها

تندرج تحت اسماً واحداً كلياً. والمذهب الثالث الذى دمجة الواقعيون الجدد فى فلسفتهم هو ما كان واقعيون سابقون قد أخذوا به مثل "جون لوك" ويشير هذا المذهب إلى أن إدراك الإنسان لشيء ما إنما يجئ مباشرة، وليس عن طريق حلقة وسطى تتوسط بين الذات العارفة والشيء المعروف. (١) وسيتضح عند الحديث عن نظرية المعرفة فى الفلسفة الواقعية المعاصرة فى الفصل الرابع.

(٩) الواقعية المعاصرة فى إنجلترا.

والفلسفة الواقعية المعاصرة فى إنجلترا أخذت أشكالاً متعددة عند كل من "راسل" Russell و"مور" Moore و"وايتهيد" Whitehead و"صمويل ألكسندر" Alexander و"مورجان" Morgan. وقد اتفقوا جميعاً فى رفض الفلسفة المثالية بكافة أشكالها، ومع ذلك لكل فيلسوف منهم مذهب خاص به الذى يميزه عن غيره من الفلاسفة الآخرين إلا أنهم جميعاً اتفقوا على نقض المبادئ التى تقوم عليها الفلسفة المثالية مثل العقل هو المصدر الوحيد لمجموعة العلاقات أو المقولات التى تربط بين الأشياء ، والمكان والزمان إطاران عقليان ولا وجود لهما خارج الذهن والقيم معايير ذاتية صرفه تضعها الذات، ووجود الشيء مرهون بإدراك الذات العارفة له، واستقلال الطبيعة عن العقل وهم زائف ، كل هذه المبادئ السالفة تؤمن بها الفلسفة المثالية إلا أن الواقعيين المعاصرين رفضوا هذه المبادئ وباختصار شديد الفلسفة الواقعية كانت رد فعل للفلسفة المثالية ، كما اتفق الفلاسفة الواقعيون على أن الطبيعة ليست ثابتة ولا ممتدة بل هى دائمة الحركة ، ظواهرها ديناميكية وأحداثها فى صيرورة لا تهدأ، ومع ذلك فهى مستقلة عن الذات العارفة ويتضح هذا عند الحديث عن نظرية المعرفة فى الفلسفة الواقعية المعاصرة عند "راسل" و"وايتهيد" فى إنجلترا و"بيرى" فى أمريكا.

(١) منتجاتنا قصة الواقعية الأمريكية: فلسفة القرن العشرين" ترجمة عثمان نويه ،

القاهرة: مؤسسة سجل العرب ١٩٦٣ ، ص ٢٠٨.

خاتمة الفصل:

استهدف هذا الفصل دراسة التطور التاريخي للفلسفة الواقعية منذ بدأ الفلسفة قبل الميلاد عند اليونان وحتى القرن العشرين، وذلك من خلال المحاور السابقة التي بينت ماهية هذه الفلسفة الواقعية، وأهم أعلامها من الفلاسفة عبر التاريخ، وذلك بهدف الكشف عن الأرضية التي نشأت فيها الفلسفة الواقعية المعاصرة في القرن العشرين وخاصة عند "راسل" و"بيري" و"وايتهيد"، كما أن التطور التاريخي يكشف لنا مدى تأثير الواقعية المعاصرة بالواقعية الفلسفية السابقة سواء كان من الناحية الفلسفية أو التربوية ، وفي الفصل التالي نتناول الدراسة الطبيعية الإنسانية وانعكاساتها التربوية لدى الفلسفة الواقعية المعاصرة وخاصة عند "بيري" و"راسل" و"وايتهيد".